العرب
الإثنين 2019/07/15
السنة 42 العدد 11408

رحيل عقل كان يحفظ ذاكرة السينما

المكتبة السينمائية تفقد أحد رموزها برحيل الناقد يوسف شريف رزق الله

غادرنا مؤخرا الصديق والأستاذ ورفيق الدرب الطويل منذ السبعينات الناقد والإعلامي المصري يوسف شريف رزق الله الذي لعب دورا بارزا في إرساء معالم واضحة في النقد السينمائي عن طريق مساهمته الهائلة في نشرة نادي السينما التي كانت تصدر عن نادي سينما القاهرة، وعن طريق ما أعده وقدمه من برامج سينمائية في التلفزيون المصري.

أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

توفي يوسف شريف رزق الله بعد رحلة طويلة مع العلاج من مرض عضال ألمّ به في السنوات الأخيرة وبعد رحلة عطاء لم تنضب أبدا في عالم الثقافة السينمائية.

كان يوسف موسوعة معلومات سينمائية، كما كان شعلة من النشاط والحركة، كان يسافر ويحضر مهرجانات السينما في العالم، وقد أصبح أيضا مسؤولا عن برامج الأفلام في مهرجان القاهرة السينمائي، ثم مديرا فنيا له.

وعندما عرض عليه أن يرأس المهرجان اعتذر وفضّل البقاء في منصب المدير الفني الذي يتعامل مع الأفلام، وليس مع الأفلام والأرقام. لكنه كان أيضا وراء ترشيح ماجدة واصف ثم محمد حفظي الذي يرأس المهرجان حاليا، وهو اختيار صائب في الحالتين.

مترجم بلا كتاب

كان الراحل الكبير أفضل من ترجم في مجال الثقافة السينمائية، رغم عدم صدور كتاب واحد له، وأظن أن الوقت قد حان الآن لكي تصدر وزارة الثقافة المصرية مجموعة من الكتب لترجماته العديدة في هذا المجال.

رغم البعد الجغرافي في ما بيننا، كنت دائما مطمئنا إلى أنه هناك، يتابع ويقرأ ولا بد أنه كان يبتسم ويتذكر أيام "الشقاوة" والمشاغبات في "نادي السينما" و"جمعية الفيلم".

وكنا نلتقي في مهرجانات السينما من أيام مهرجان فالنسيا في الثمانينات مع أحمد صالح ورؤوف توفيق وسمير نصري ورأفت الميهي ومحمد خان وعمالقة آخرين رحلوا، كما كنت التقيه سنويا في مهرجان كان الذي لم ينقطع عن التردد عليه سوى هذا العام فقط، بعد تفاقم أزمته الصحية.

كان يوسف يترجم أسبوعيا لنشرة "نادي السينما" بالقاهرة في عصره الذهبي، لمدة عشرين عاما، وكانت ترجمات يوسف من مقالات ومقابلات وتقارير ومقالات نقدية ومعلومات وتحقيقات عميقة، متخصصة، عن الظواهر السينمائية في فرنسا والعالم، تثرينا وتغذي ثقافتنا. وكانت تحتوي على كنوز من المعلومات والتحليلات التي لم يوجد لها مثيل من بعد، بهذا الشكل الأسبوعي المنتظم والشامل.

> كان يوسف موسوعة معلومات سينمائية، كما كان شعلة من النشاط والحركة، كان يسافر ويحضر مهرجانات السينما في العالم

كانت ثقافة يوسف السينمائية الموسوعية، وإجادته التامة للغتين، الفرنسية والإنكليزية، إلى جانب معرفته الممتازة باللغة العربية، تساعده على تقديم هذه الترجمات الجميلة، السلسة، الواضحة، الثرية. فضلا عن هذا كله، كان يوسف وظل دائما، هاو عظيم للسينما، ولولا حبه وإخلاصه للسينما التي عشقها لما أنتج كل ما أنتجه، بزهد واضح، ودون رغبة في الادعاء أو البحث عن الشهرة، فقد كان يكتفي بالنشر في نشرة "نادي السينما" ثم في مجلة "المسرح والسينما" ثم مجلة "السينما" إلى أن توقفت بكل أسف كما تتوقف كل مطبوعة جادة متخصصة في مصر.

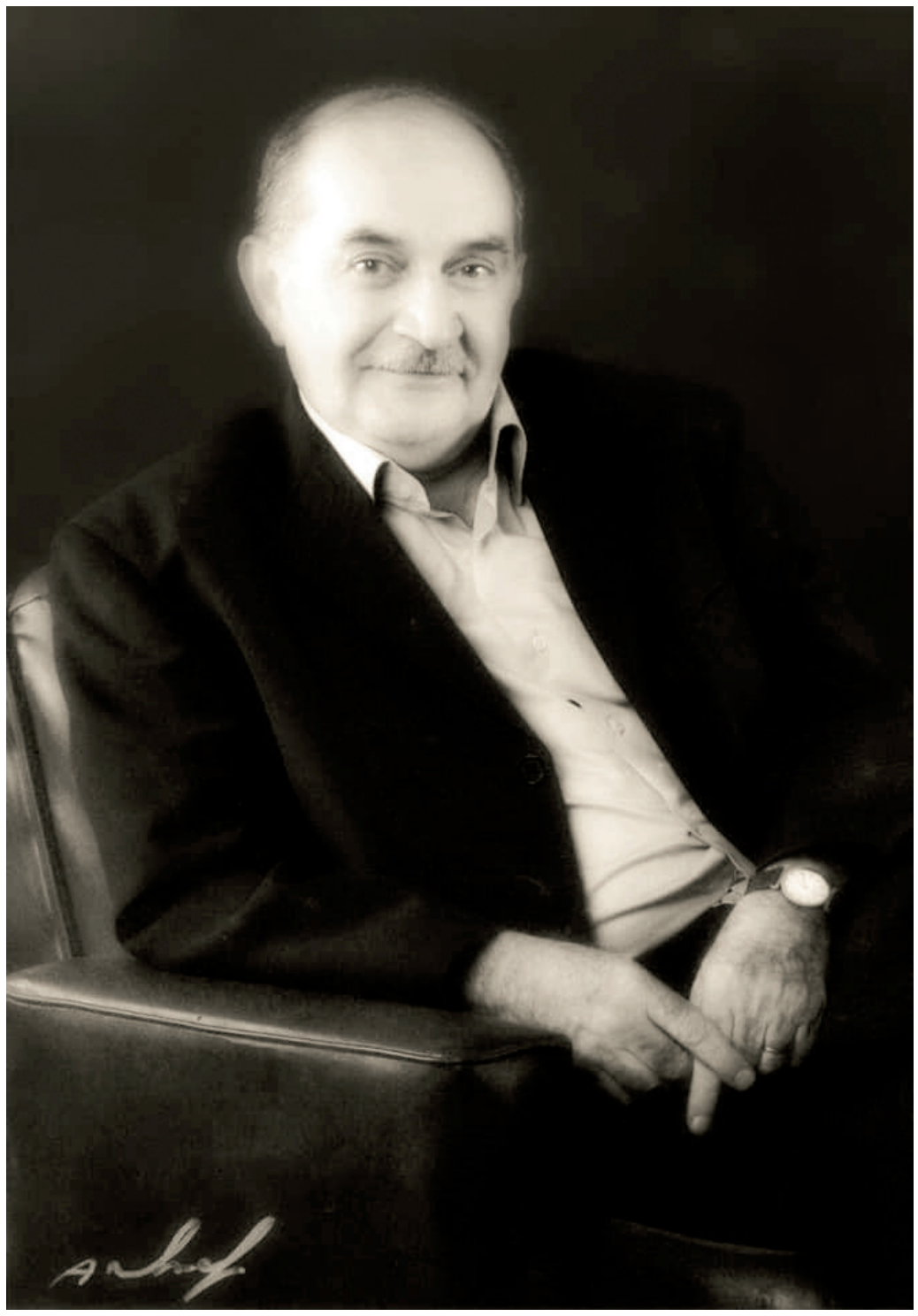

كان يوسف وظل دائما، هاويا عظيما للسينما

كان يوسف من بين الأوائل الذين تولوا تعريفنا، من خلال ما نقله إلى العربية، بعدد من أبرز وأهم السينمائيين في فرنسا وأوروبا عموما، ليس فقط من الأجيال صاحبة التراث المؤثر، بل من التيارات الجديدة التي كانت تظهر من وقت إلى آخر.

وقد كنا سعداء الحظ أن نشأنا ونشأ اهتمامنا بالسينما في تلك الفترة من أواخر الستينات، عندما كانت حركة التجديد في السينما الأوروبية وسينما القارات الثلاث، في أوج مجدها وانتفاضتها على السينما التقليدية القادمة من هوليوود. وكانت فرنسا تحديدا، "كعبة" الحركات الجديدة في السينما، من الموجة الجديدة إلى سينما الحقيقة، إلى السينما النضالية، وغيرها.

كان يوسف أيضا جريئا جدا في ما ينقل لنا عن الفرنسية، عن مخرجين لم نكن نعرف عنهم الكثير، مثل جورج كلوزو وجان بيير ميلفيل وأندريه ديلفو (البلجيكي) ومماركو فيراري (الإيطالي) وبرتران تافرنييه وكوستا جافراس وبرتران بلييه وفرنسوا تروفو وكلود شابرول وكلود ليلوش، وغيرهم.

ولعل من أهم ما نقله لنا يوسف أيضا، الكثير من أدبيات سينما التمرد والغضب التي ارتبطت بحركة التمرد المشهودة في مايو 1968 في فرنسا، بل كان أول من كتب عن تأثير هذه الحركة على السينما، وقدم لنا سردا تفصيليا دقيقا لتطور الأحداث في باريس منذ إعفاء مدير السينماتيك الفرنسية هنري لانغلوا، من منصبه، ثم اندلاع غضب المثقفين والسينمائيين وانتفاضة الطلاب، وانضمام العمال إلى الطلاب وإقامة المتاريس في باريس وتحويلها إلى ثكنة عسكرية. وقد نشر هذه التفاصيل في مجلة "المسرح والسينما"، والتي كان عضوا في هيئة تحريرها ولم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره بعد.

وكان ما كتبه يوسف يأسرنا، أبناء جيلي وأنا، فقد كنا مفتونين بقدرة السينمائيين الشباب على إشعال شرارة حركة ثورية في بلد من أعرق الديمقراطيات في العالم. وكانت ثورة الشباب وقتها في قمة مدها في أوروبا.

كان يوسف شريف وراء اختيار عدد من أهم الأفلام التي عرضت في "نادي السينما"، وهي في معظمها فرنسية، وكانت بالنسبة لأبناء جيلي، الذي جاء بعد جيل يوسف ورفاقه، اكتشافات حقيقية.

ثم واصل دوره بقدر ما سمحت به ظروف العمل في التلفزيون المصري، في برنامج "نادي السينما" الذي كان يعده ثم برنامج "أوسكار" وغيره من برامج السينما التي اختفت الآن.

كتابات مثيرة للجدل

رغم ما كانت تثيره من جدل كتابات يوسف شريف رزق الله ومقابلاته التي يجريها مباشرة مع السينمائيين الأجانب، وما يترجمه عن مجلات السينما الفرنسية في عز اشتعال ثورة شباب السينمائيين في العالم، إلاّ أن يوسف نفسه لم يشأ أن يكون من "الغاضبين" أمثالنا، الذين كانوا يعبرون عن رغبتهم في "تغيير العالم" بالسينما بشكل مباشر من خلال مقالات تمزج بين السينما والسياسة، فقد كان يميل للتأمل من مسافة ما، وكان يهتم أكثر بالمعلومة وهو ما يرجع إلى عمله في قسم الأخبار بالتلفزيون المصري بعد تخرجه في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وربما كان يعبّر عن غضبه من خلال ما يختاره ليترجمه وينقله لنا من مواد شديدة السخونة.

لكنه كان أيضا عضوا فاعلا في كل التجمعات التي كوّنها السينمائيون والنقاد الشباب مثل جماعة السينما الجديدة ثم جمعية نقاد السينما المصريين، كما ترأس لسنوات أقدم تجمع سينمائي في مصر، أي "جمعية الفيلم" التي لعبت وما زالت تلعب دورا كبيرا في مجال الثقافة السينمائية.

وعن طريق شبكة علاقاته مع شركات التوزيع الأجنبية في القاهرة كان يستطيع أن يأتي لنا بالأفلام الفنية الجيدة قبل توزيعها في مصر، للعرض في "نادي السينما" و"جمعية الفيلم". وكان الكثير من هذه الأفلام، إما يواجه مشاكل رقابية ويمنع من العرض كما حدث مع فيلم "كلاب القش" لسام بكنباه، ثم مع فيلم "زد" لكوستا غافراس، و"الحرب انتهت" لآلان لارينيه، وإما ترى الشركة الموزعة أن الفيلم لن يحقق دخلا حقيقيا من السوق المصرية فكانت تعيده إلى الشركة الأم في أميركا، وكان يوسف يحصل لـ"نادي السينما" على حق عرضه قبل إعادته، ومن دون أي رقابة بالطبع.

أتذكر من الأفلام التي كان يوسف سعيدا بوجه خاص بأنه أتى بها وعرضها علينا في "جمعية الفيلم" قبل العرض العام، فيلم "كباريه" (1972) لبوب فوس، ثم فيلم "الصفحة الأولى" (1974) The Front Page لبيللي ويلدر.

وبعد عرض "الصفحة الأولى" غادرنا الجمعية فاقترب مني وسألني عن رأيي باعتباري كنت أمثل جيلا آخر وقتها، كان مشتعلا في خضم الحركة الطلابية في الجامعات المصرية. وكأن يوسف كان يريد أن يقول لي "ها هو فيلم من الأفلام اليسارية التي تحبونها.. فما رأيك"؟، لكني لم أبدِ حماسا كبيرا للفيلم، فقد اعتبرته عملا "تقليديا" فيه من التسلية أكثر مما فيه من "الفكر". ولكنني غيّرت رأيي في ما بعد بالطبع، فالفيلم رائع!

تأثر يوسف عندما كتبت عن ذلك العصر، ثم عندما نشرت ذكرياتي عن أفلام جيمس بوند التي لم تكن "ثورية" بأي حال، بل كانت شديدة الرجعية، لكننا كنا نحبها. وعلّق على ما كتبته وأبدى سعادته به، فلا بد أنه أعاده بدوره إلى ذلك الزمن البديع.. زمن شبابنا وحماسنا وعشقنا للسينما الجميلة.

الحديث عن يوسف شريف رزق الله وما أنجزه يمكن أن يمتد صفحات وصفحات، ودوره البارز في تطوير الوعي السينمائي محفور في ذاكرة أجيال من تلاميذه ومحبيه.

رحمه الله ألف رحمة ورحمنا جميعا.

الكاميرا في سينما المناجم تتفوق على الجرافات

إقامة مهرجان لسينما المناجم في الجريصة، المدينة التونسية الخلابة والباهتة، دائمة الشحوب والسعال مثل بطلة رواية "زهرة الكاميليا"، ويغطي ماءها وهواءها وشجرها الغبار، ليس ترفا ثقافيا في بلدة سرق جوفها الاستعمار وأهملتها دولة الاستقلال، بل حاجة يمليها الإحساس بالقهر والمرارة، وطريقة للفت الانتباه والصراخ من خلال الصورة السينمائية.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

تونس – تحتضن مدينة الجريصة، التابعة لمحافظة الكاف بالشمال الغربي التونسي، الدورة الثالثة لمهرجان سينما المناجم أيام 13 و14 و15 سبتمبر القادم، بمشاركة أفلام محلية وعالمية، تتوزع بين التسجيلي والوثائقي والروائي.

وثمة جهات محلية وعربية ودولية ثبتت مشاركتها وأبدت حماسها وفرط اهتمامها لهذه التظاهرة الاستثنائية المميزة، رغم علمها المسبق بتواضع شروط العرض وقلة الإمكانيات في هذه المدينة الفقيرة التي تعرف تونسيا بعاصمة المناجم.

المهرجان فتي وطموح، أعلن عن خصوصيته منذ انطلاق دورته التأسيسية عام 2017 بمبادرة من أبناء المنطقة التي تضم واحدا من أقدم مناجم الحديد في القارة الأفريقية (تأسس عام 1907)، بنا حوله الاستعمار الفرنسي آنذاك بلدة نموذجية سرعان ما عرفت بـ"باريس الصغرى" واستقطبت جاليات فرنسية وإيطالية، وأخرى مغاربية، بالإضافة إلى العائلات التونسية التي جمعها طلب لقمة العيش من مختلف مناطق البلاد فتقاربت وتصاهرت وانصهرت في هذه البلدة مختلف الفئات الاجتماعية، مما أنتج ثقافة طبعت الأجيال المتعاقبة بروح التسامح والتميز الإبداعي بسبب ما حظيت به المدينة دون غيرها من مرافق، كقاعة العرض السينمائي الوحيدة التي نقلت للناس عدوى حب السينما، بالإضافة إلى فضاءات لنشاطات رياضية وثقافية، شكلت وعيا مبكرا لدى أبناء المنطقة رغم الواقع المعيشي البائس.

ومولدي خليفي، ابن عائلة منجمية كادحة في مدينة الجريصة، وواحد من الأجيال التي أصابتها لوثة السينما في هذه البلدة الاستثنائية فأقدم على إنتاج فيلم روائي قصير حمل عنوان "غربال الحمري" (أي غربال غبار الحديد) بإمكانياته الذاتية شبه المعدومة ثم تلقى مساعدة من أحد أبناء المنطقة المتحمسين، ومساهمة رمزية من وزارة الثقافة.

وخليفي، أيضا، مؤسس المهرجان ومدير دورته السابقة، والذي يسعى هو وآخرين من أبناء الجهة إلى أن يكون المهرجان بمثابة إعادة الاعتبار للثقافة المنجمية، في نوع من التكريم وإعادة الاعتبار إلى أجيال سفحت أعمارها في "الداموس" (نفق إخراج عربات الحديد من باطن الجبل)، فمنهم من قضى نحبه تحت الركام والانهيارات الترابية في الليالي المطرة، ومنهم من نجا من ذلك، ومن هم من تعطلت رئتاه بفعل غبار الحديد فمات في سن مبكرة تحت السعال المزمن حالما بجرعة هواء نقي لم يدركه، ولم يتمتع به حتى أطفاله من بعده.

وفي هذا الصدد يقول خليفي، "إن إحدى أهم غاياتنا من إقامة هذه التظاهرة السينمائية التي لا تركن للتقليدي والمكرر والمستهلك، هو إسماع صوت المنطقة إلى جهات الإشراف وأصحاب القرار بقصد لفت النظر إلى حالنا واقتلاع نصيبنا في التنمية التي حرمنا منها مقارنة ببقية الجهات".

ويستطرد خليفي قائلا "كل ما نرجوه من وزارة الثقافة والجهات المعنية، هو حقنا في الدعم أسوة بالمهرجانات الأخرى التي ترصد لها مبالغ ضخمة رغم ما تقدمه من ضحالة باسم الفن والثقافة".

الجريصة، تعرف قي تونس بـ"عروس المناجم" أو "المدينة العجوز" وهما تسميتان تحملان تناقضا ظاهريا من حيث الجمع بين العروس والعجوز، لكن هذا يبدو مستأنسا، وعلى أتم التطابق والانسجام لمن يعرف هذه المدينة التي تجمع بين جمال أخّاذ من حيث دقة ورونق التصميم المعماري للقرية ذات الأسطح القرميدية، وجميع المرافق والأمكنة الترفيهية التي تركها الاستعمار مثل ديكور فيلم في أرض نائية.

هذه الصورة أصبحت باهتة وتغادرها الحياة ببطء بعد أن استوطنها الفقر والتهميش، فكأنما قاعة السينما الوحيدة المغلقة منذ سنوات بذريعة الترميم، هي في حد ذاتها رواية سينمائية موازية تحكي آلة عرضها المتوقفة "سنوات العز" المسفوحة رغم كل ما يكتنفها من وجع.

مهرجان سينما المناجم في الجريصة، ورغم حالة الفقر والعوز والضنك التي يمر بها، تجاوبت وتفاعلت معه دول كثيرة في الشرق والغرب حين أعلن عن إطلاق دورته الأولى، وأبدت استعدادها للمشاركة نظرا لطرافة الفكرة وما تحمله من حس ابتكاري يتمحور حول أدب المناجم منذ الفرنسي إيميل زولا في رائعته "جيرمينال" وانعكاساتها في الرواية العربية كـ"الدقلة في عراجينها" للراحل التونسي البشير خريف، و"أمغيون" للمغربي محمد العرجوني.

> القائمون على المهرجان هدفهم تكريم صانعي الحياة من تحت الحياة وإزاحة غبار التهميش عن مدينة التراب الأسود

لكن تناول الحياة المنجمية في السينما هو حقل غزير الدلالة ومتشعب المرامي والاتجاهات على مستوى الطروحات البصرية والفكرية، ذلك أن فضاءات التصوير من كتل ضوئية وجداريات قاتمة وتشكيلات جسدية، وحكايات تروى وتوارى الثرى تحت الأرض، هي مفردات أكثر "إغراء" لكاميرا السينمائي من تلك التي تصوّر في المساحات الاعتيادية المتوقعة. إضافة إلى ذلك كله، فإن مدينة الجريصة تضم الآن متحفا منجميا استثنائيا يتمثل في الكنيسة الصغيرة التي تحولت إلى ذاكرة عمالية تمتد لأكثر من مئة عام.

مهرجان سينما المناجم في الجريصة، يكرم "إخوة التراب الأسود" ويحفر بالصورة ما لم تحفره الجرافات المعدنية لتطال أنفاقا ما زالت بكرا ومستعصية على الكاميرا العربية.

حمى المهرجانات التي تتذرع بالثقافة وتدعي الدفاع عن خصوصياتها المناطقية في تونس، كثيرة ولا يهدف أغلبها إلاّ لجمع المال.. هذه مسألة بات يعرفها القاصي والداني في هذا البلد المتخم بمهرجاناته التي تؤسسها جمعيات محلية بعضها متنفذ وقادر على افتكاك الميزانيات رغم ضعف محتواه الفني، وبعضها يمتلك النوايا والأفكار والطموح، ولا يجد من يدعمه أو يصغي إليه مثل مهرجان سينما المناجم في الجريصة، ذات الخصوصية الثقافية المميزة (كم هائل من مثقفي تونس هم من هذه المنطقة).

ومهرجان سينما المناجم، ليس مجرد ترف ثقافي تقف خلفه مصالح فئوية، بل مشروع مكتمل الأركان من حيث الرهان على خصوصية مناطقية واجتماعية من شأنها أن تصنع الاستثناء الثقافي.

طريق محفوفة بالمخاطر (لقطة من الفيلم التونسي «يعنبو الفسفاط»)